النثر القديم

العرب والارتجال: (يقول الجاحظ: وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنّه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أنْ يصرف وهمه إلى الكلام... عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلاّ أنْ يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرْسالاً (أفواجا) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا.. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر.. من غير تكلف ولا قصد ولا تحفّظ ولا طلب") [1].

أهمية الخطيب: يقول عامر المحاربي في مديح قومه:

وهم يَدعمون القولَ في كلّ موطن *** بكلّ خطيبٍ يترك القومَ كُظَّمَا

يقوم فلا يعيا الكلامَ خطيبُنا *** إذا الكربُ أنسى الجِبْسَ أنْ يتكلّمَا

أهمية الخطيب: وكما كان يدعو خطباؤُهم إلى الحرب وسفك الدّماء كانوا يدعون إلى الصّلح وإصلاح ذات البين وأنْ تضع الحربُ أوزارَها، يقول ربيعةُ بن مقروم الضّبّي:

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ *** خطباؤُنا بين العشيرة، يُفْصَلِ

أهمية الخطيب: وكانوا كثيرا ما يخطبون في وفادتهم على الأمراء، إذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير من الغساسنة أو المناذرة، فيحييه، متحدّثا بلسان قومه، وفي السيرة النّبويّة ما يصوّر جانبا من هذه الوفود، إذْ وفد كثيرٌ منها على الرسول ﷺ منذ السنة الثامنة، وكان يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدّثا، ويرد عليه خطيب الرسول (ص) على نحو ما هو معروف عن وفد تميم وخطبة عُطارد بن حاجب بن زرارة بين يديه. وكان ذلك سنَّةً شائعة بينهم في الجاهليّة حين يفدون على الأمراء أو من له رياسة وسيادة) [2].

النثر الفني: (إنما الذي يعد أدبا حقا هو النثر الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء، وهو أنواع، منه ما يكون قصصا وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبّرة، ويسمي بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفني) [3].

---

[1] البيان والتبيين، ج 3، ص: 28.

[2] شوقي ضيف، ص: 411.

[3] شوقي ضيف، ص: 398.

النثر الجاهلي: (إذا كان القصص الذي أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلي بحكم تأخّره في التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة، إذ أنّ من شأنها أنْ لا تُغيّر، وأنْ تظل طويلا بصورتها الأصلية، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة. وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذْ ألّف فيها صُحارُ العبدي أحد النسّابين في أيام معاوية بن أبي سفيان (41 – 60 هـ) كتابا، كما ألّف فيها عُبيد بن شَرِيّة معاصرُه كتابا آخر، ويقول صاحب الفهرست إنه رآه في نحو خمسين ورقة. وإذا انتقلنا إلى القرن الثاني وجدنا التأليف في الأمثال يكثر، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعا يهتمون بها ويؤلفون فيها، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضّل الضّبّي، ونمضي إلى القرن الثالث، فيؤلّف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتابا يشرحه من بعده أبو عبيد البكري باسم(فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام). وما تزال المؤلفات في الأمثال تتوالى، حتى يؤلف أبو هلال العسكري كتابه (جمهرة الأمثال) ويخلفه الميداني، فيؤلف كتابه (مجمع الأمثال) وهو يقول في مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتابا)[4].

(واشتهر في الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، يقول الجاحظ: "ومن الخطباء والبلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صيفي وربيعة بن حُذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرِب ولبيد بن ربيعة"، وأحكمهم أكثم بن صيفي التميميّ وعامر بن الظَّرِب العدواني، فأما أكثم فكان من المعمّرين، ويقال بأنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجها إلى الرسول ﷺ ، غير أنه مات في الطريق. وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة، وقد ساق السيوطي في المزهر طائفة منها نقلا عن ابن دريد في أماليه، وهي تجري على هذا النسق: ربّ عجلة تهب ريثا، ادّرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل، المرء يعجز لا محالة، لا جماعة لمن اختلف...)[5].

خطب الجاهلية: (يقول الجاحظ: "كانت خطبة قريش في الجاهليّة – يعني خطبة النساء -: باسمك اللهم ذُكرتْ فُلانةٌ، وفُلانٌ بها مشغوفٌ، باسمك اللهم، لك ما سألتَ، ولنا ما أعطيتَ". ويقول كان من عادة العرب في هذه الخطبة أن يُطيل الخاطب ويُقَصّرَ المجيبُ. ويتحدّث عن خطابتهم عامة، فيقول: "اعلم أنّ جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين، منها الطوال ومنها القصار، ولكل ذلك مكان

---

[4] شوقي ضيف، ص: 404.

[5] شوقي ضيف، ص: 406، 407.

يليق به وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستويا في الجودة، ومتشاكلا في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان والنّتف الجياد.. ووجدنا عددَ القصار أكثر ورُوَاةَ العلم إلى حفظها أسرع".

وليس كل ما يدلّ على ازدهار الخطابة في الجاهلية ما رأيناه آنفا من تعدّد أنواعها وخوضها في أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفادة إلى الأمراء أو النصح والإرشاد أو الدّعوة إلى الحرب أو الكفّ عن القتال أو في المنافرات والمفاخرات...)[6].

قس بن ساعدة: (ومن خطباء إياد قُسُّ بن ساعدة، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: "رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت"[7].

شهادة الرسول ص في قس: ويقول الجاحظ: "ولإياد خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول لله ﷺ هو الذي روى كلام قس بن ساعدة، موقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش وللعرب، وهو الذي عجّب من حسنه وأظهر من تصويبه، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال")[8].

بين الشاعر والخطيب في الجاهلية: يقول أبو عمرو بن العلاء: (كان الشاعر في الجاهلية يُقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيّد عليهم مآثرَهم، ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومَن غزاهم، ويهيّب من فرسانهم، ويخوّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعرٌ غيرُهم، فيراقب شارعَهم. فلما كثُر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبةً ورحلوا إلى السّوقة وتسرّعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر)[9].

قدر الخطيب في الجاهلية: وعلى هدي هذا القول مضى الجاحظ يقول: (كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيّامهم، فلما كثُر الشعراء وكثُر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر)[10].

لغة الكهانة: (ولأن أدب الكهانة من الأدب الخاص كما أسلفنا، فكانت لغة الكهانة تنبثق من شعور التفوّق والأفضلية والسمو الروحي على مَنْ يستصبحون بهديها، فهي في نظر أصحابها ونظر من يدينون بها لغةٌ

---

[6] شوقي ضيف، ص: 412.

[7] البيان والتبيين، ج 1، ص: 308.

[8] البيان والتبيين، ج 1، ص: 52.

[9] البيان والتبيين، ج 1، ص: 241.

[10] البيان والتبيين، ج 4، ص: 83.

خاصة مختارة، لها سند من قوة علويّة ملهمة، تتخذ منها أداة لفض أختام الغيوب، وهتك أستارها، ومن ثم كان لا بدأن تستعين بما تستعين به (كديّة الزّار) من التأثير في النفوس الضعيفة المستسلمة، لتشل تفكيرها، وتخدّر تعقّلها وتلهيها عن تبيين التدلسي والتلبيس، وتسوقها إلى الإذعان والقبول؛ مستغلّة تشوّفها إلى معرفة أسرار الغد، ومطالعة صحف المجهول، لذلك تراها تعتمد على المواربة والرمز والإبهام والاستغراق مرّة، وعلى القسم والطّنين // والجلجلة والتّهويل والإغراب أخرى، حتّى تتحقّق الغاية المقصودة منها)[11].

حقيقة الخطابة الجاهلية: (والذي يبدو أنّ أكثر ما جاءنا عنهم مخترع مصنوع، ولكن مجيئه على هذه الصورة بعينها؛ دليل على أنهم هكذا كانوا ينطقون، وهكذا كانوا يخطبون، وإلاّ لما اتفقت روايات الرواة، ومن قد نحلوهم بعض الأقوال والخطب، على أنهم كانوا يسجعون هذا السّجع، وإذا صحّ أنّ هذا السّجع مصنوع، فهو لا ينفي أن الأصل مصنوع أيضا، لأن من أراد محاكاة شيء أفرغ جهده وحذقه في مجيئه على شاكلته.

وحسبك دليلا على ما كان للكهان من سجع عرفوا به ما جاء في الأثر: أنّ النبي ﷺ قضى بديّة في جنين، فقال أحدهم: يا رسو الله كيف نَدِي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، فمثل ذلك يطل.

فأنكر عليه الرسول ﷺ هذا الأسلوب، قائلا: "أسجعا كسجع الجاهليّة"، وفي رواية أخرى "أسجعا كسجع الكهان" فجعل السجع مختصا بالكهان بمقتضى الإضافة، كما يقول ابن خلدون)[12].

سجع الكهان في رأي الإسلام: (وإنما بُغّض هذا السّجع - فوق التكلف والتعسف - أن الكهان الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدعون الكهانة، وأنّ مع كل واحد منهم رِئْي من الجن، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع)[13].

ومن الأديبات الكواهن: الشعثاء، وطريفة الخير التي تكهنت بسيل العَرِم، وخراب سدّ مأرب، والزبراء، وكاهنة ذي الخلَصَة التي تكهنت بما في بطن رقية بنت جُثَم، وسلمى الهمدانية، والعجفاء بنت علقمة والعُفَيْراء)[14].

---

[11] أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص: 56، 57.

[12] أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص: 57.

[13] أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص: 57.

[14] أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص: 58.

النثر المسجوع والقرآن الكريم: (رفع القرآن الكريم النثر المسجوع إلى مرتبة معلومة من التقديس الديني، منذ بلغ به إلى درجة الإعجاز البلاغي. وكان لذلك من الأثر أن كاد الناس يتجنبون استعمال السجع تماما في الشؤون الدنيوية طوال القرنين الأولين من تاريخ الإسلام، وذلك مهابة من إعجاز القرآن العزيز.

وأول ما ظهر السجع ثانيا في النثر العربي كان في الخطبة، التي برزت في أوائل القرن الثالث الهجري، وأخذت تتميز منذ ذلك العهد أسلوبا للوعاظ المحترفين، الذين صاروا يصوغونها صياغة فنية محكمة ومن هنا انتقل السجع في أثناء القرن الرابع إلى دائرة الأدب أيضا، فظهر في كتابة الرسائل وفي أدب المقامات) [15].

تعليق المترجم: (للمؤلف العذر في عجزه عن فهم طبيعة النثر القرآني، وتمييز مراحل النثر العربي وتاريخه. فإذا كان القرآن استخدم السجع فقد استخدم إلى جانبه كل ما عرفه النثر العربي من أساليب ليسجل أعلى درجات الإعجاز في كل منها، وإذا كان السجع قد نال تقديسا دينيا فقد يمكن تلمس ذلك في الجاهلية حينما كان أسلوب الكهان وأمثالهم، ولقد نهى الدين عن السجع لمضاهاة الكهان، ولأنه خروج على طبيعة اليسر في التعبير، ولما فيه من الفراغ الفكري والفضول اللفظي... وحسبك أنّ أحلك مراحل النثر العربي هي التي صار السجع فيها غرضا من الأغراض الفنية) [16].

ألوان القصص العربية: (ويمكننا بواسطة ما دونه العباسيون أن نعرف ألوان هذا القصص الذي كانوا يتناقلونه بينهم، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعا على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجله أبطالهم فيها من انتصارات مروّعة وما منيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة، وقد ظلّوا يقصون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويّو القرن الثاني للهجرة وروّاته، فدوّنوها تدوينا منظما على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها) [17].

بعض مواضيع القص: (وعلى نحو ما كانوا يقصون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصون عن ملوك الأمم من حولهم وشجعانهم، يدل على ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أنّ النّضر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا، فذكّر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب مَنْ

---

[15] كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني، ترجمة عبد الحليم النجار، ط 4، دار المعارف ، ص: 107.

[16] كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني، ترجمة عبد الحليم النجار، ط 4، دار المعارف، ص: 107.

[17] شوقي ضيف، ص: 399.

قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفَه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلم إليّ، فأنا أحدّثكم أحسن من حديثه، ثم يحدّثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار...)[18].

بعض مواضيع القص: (ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصون كثيرا عن كهانهم وشعرائهم وسادتهم، وهو قصص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب معينا لا ينضب من الأخبار، وارجع إلى تراجم صاحب الأغاني فستراها تحفل بمادة غنية من القصص، وقد بثوا فيها غير قليل من قصص الهوى، كقصة المرقش الأكبر وصاحبته أسماء...)[19].

قصص التعرف بين العاشقين: (وإذا صحّ ما ذهب إليه بروكلمان من أنّ تعرّف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع في كثير من الحكايات عند أمم غير العرب، كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى في الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية، ويدخل في هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيوانات التي يلتقون فيها بخرافات الأجانب...)[20].

قصص الجن عند الجاهليين: ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قصوا كثيرا عن الجن والعفاريت والشياطين، وقد زعموا أنها تتحول في أي صورة شاءت إلا الغول فإنها دائما تبدو في صورة امرأة عدا رجليها، فلا بد أن تكونا رجلي حمار. وكثيرا ما تتراءى الجن في صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور. وكانوا يزعمون أنّ أهم منازلها أرض وَبَار وصحراء الدّهناء ويَبْرين. ومن غير شكّ دخل كثير من قصصهم عنها في كتب الأساطير والعجائب التي أُلّفت في العصر العباسي).

القصص الجاهلي والشك: (إن شيئا من هذا القصص الذي يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدونا مكتوبا، ولذلك كنا نتهمه جملة، وإنْ كنا بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيرا من ملامحه، ولكن لا بصورة دقيقة، وإنما بصورة عامة)[21].

الحكم والأمثال: (وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعيّنون قائلها، وهذا طبيعي لأنها تنبعث غالبا من أناس مجهولين من عامة القبائل، ممّن لا يُمجّدون، ولا يحفل بهم الناس، نهم أيضا لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم. ولا بد أن نلاحظ أنّ بعض أمثالهم يخفي المعنى المراد منه.

---

[18] شوقي ضيف، ص: 400.

[19] شوقي ضيف، ص: 400.

[20] شوقي ضيف، ص: 402.

[21] شوقي ضيف، ص: 403.

ومن أجل ذلك كان لا يُفهم إلاّ بالرجوع إلى كتب الأمثال، كقولهم: "بعين ما أرينّك"، فإن معناه: أسرِعْ، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ، ومن ثمّ علّق عليه أبو هلال العسكري بقوله: "هو من الكلام الذي قد عُرف معناه سماعا من غير أنْ يدلّ عليه لفظُه".

ولا بدّ أن نلاحظ أيضا أنّ الأمثال لا تتغيّر، لا تشذ على هذا النظام، بل إنّ طائفة منها تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة، إذْ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صيفي وعامر بن الظّرْبِ، وكان خطباؤهم المفوّهون كثيرا ما يعمدون إلى حشدها في خطابتهم، يقول الجاحظ: "كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعا ليتمثّلوا بها إلاّ لما فيها من المرفق والانتفاع"، وتبع شعراؤُهم خطباءَهم يودعونها أشعارَهم، ومن ثمّ كنا نجد كثيرا منها يتم له لحنه الموسيقي، فإذا هو شطر // أو بيت. وكثيرا ما نلاحظ في بعض عباراتها احتفالا بتوازن الكلمات توازنا ينتهي بها إلى السجع كما نلاحظ في بعض جوانبها اهتماما بالتصوير، ومن أجل ذلك يقول النّظّام إنها "نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية")[22].

جمالية المثل: (فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنغيم الموسيقي للفظه، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطرا من بيت. وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة، ليجسّم المعنى ويزيده حدّة وقوّة. والحق أنّ كل شيء يؤكد أن العرب في الجاهلية عُنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا)[23].

أهمية الخطابة في الإسلام: (نجد النثر - وعلى الأخص الخطابة - يعلو صوته في صدر الإسلام على صوت الشّعر، ثم ينتقل في العصر الأموي إلى طور آخر، نتيجة لاحتدام الفتن الحزبية والمذهبية، وتكاثر التيارات الأجنبية، التي بدأت تخطو سريعا إلى البيئات العربية، منذ عهد الفتوح الإسلامية الأولى، أيام خلافة الراشدين، فأصاب النثر في أواخر هذه الدولة تطورا خطيرا آخر، على يد عبد الحميد بن يحيى الكاتب، الذي وضع منهجا جديدا لفن الكتابة، كان بمثابة التمهيد القوي لازدهار هذا الفن الأدبي، في عصره الذهبي خلال القرنين لثالث والرابع الهجريين)[24].

---

[22] شوقي ضيف، ص: 408، 409.

[23] شوقي ضيف، ص: 409.

[24] الأدب في عصر النبوة، ص: 06.

(دراسة أدب العصر ضرورة لا غنى عنها لفهم كثير من وجوه تطور الأدب في العصر الذي يليه (العصر الأموي)؛ إذ كانت الصلة قوية بين أدب العصرين.

في أوّلهما أكثر جذور الفنون والمذاهب الأدبية في الآخر، ونذكر في هذا المجال نشأة الكتابة الفنّية وتطوّرها في صدر الإسلام، ممّا عبّد السبيل أمام النهضة الفنّية لهذا الجنس الأدبي في العصر التّالي، كما نذكر تطوّر فنّ الخطابة الإسلاميّة، واتّساع مجالاته، وتنوّع أغراضه وألوانه، فكان ذلك كلّه قاعدة صلبة، وثبّت منها الخطابة إلى عصرها الذّهبيّ في عصر بني أميّة)[25].

طبيعة الخطبة: (أمّا الخطبة فهي كلام لا يكون إلاّ شفويّا، يلقيه الخطيب على الجمع من النّاس، في أمر من أمور الحياة العامّة، المتصلة بدينهم أو دنياهم، بقصد التّأثير فيهم، وإثارة حماستهم أو إقناعهم بهذا الأمر، قبولا أو رفضا)[26].

الوصايا:

الوصية في عصر النبوة: (قطعت الوصايا في هذه الفترة – عصر النّبوّة – الشّوط نفسه الذي قطعته الخطابة، فظهرت الوصيّة الدّينيّة، كما ظهرت الخطبة الدّينيّة، وتناولت من الموضوعات والمعانيّ ما تناولته الخطبة، متأثّرة بالإسلام والقرآن فيما تأثّرت به الخطبة من الشّكل والمضمون، كما ظهرت الوصيّة السّياسيّة الممتزجة بالعناصر الدّينيّة)[27].

وصايا الرسول والخلفاء: (وهناك كثير من وصايا الرّسول ﷺ وخلفائه وصحابته، وأكثرها يغلب عليه الطابع الدّينيّ، من وصايا الخلفاء لمن بعدهم ما يتناول أمورا سيّاسيّة تتصل بنظام الحكم، وحسن القيام على الرّعيّة، وتنظيم شؤون الدّولة، بخاصة في البلاد المفتوحة، في عهد عمر ومن بعده، ومعظمها موجه إلى الولاّة والجنود، وإلى مَن سيضطلع بالحكم بعدهم)[28].

من وصايا علي: (من الوصايا الدينية وصيّة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ابنيه الحسن والحسين عند وفاته: "أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدّنيا وإنْ بغتكما، ولا تبكيا على شيء منها زوى عنكما. قولا الحقّ، وارحما اليتيم، وأعينا الضّائع، وأضيفا الجائع، وكونا للظّالم خصما، وللمظلوم عونا، ولا تأخذكم في الله لومة لائم".

---

[25] الأدب في عصر النبوة، ص: 08.

[26] عبد الحكيم بلبع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط 1، القاهرة، ص: 79.

[27] الأدب في عصر النبوة، ص: 200.

[28] الأدب في عصر النبوة، ص: 200.

فالمعاني والعبارات والغرض والأسلوب، تحمل كلّها خصائص الخطبة الدّينيّة المتأثّرة بالإسلام في هذا العصر)[29].

وصية أبي الأسود: (ومن الوصايا الاجتماعية وصيّة أبي الأسود الدّؤليّ ابنته ليلة عرسها: "يا بنيّة: كان النّساء أحق بأدبك منّي، ولكنْ لا بدّ لي منه، يا بنيّة: إنّ أطيب الطّيب الماء، وأحسن الحسن الدّهن، وأحلى الحلاوة الكحل. يا بنيّة: لا تُكثري مباشرة زوجك فيملّك، ولا تباعدي عنه فيجفوك، ويعتلّ عليك، وكوني كما قلت لأمّك:

خذي العفوَ منّي تستديمي مودّتي *** ولا تنطقي في سَوْرَتي حين أغضبُ

فإنّي رأيتُ الحبّ في الصّدر والأذى *** إذا اجتمعا لم يلبث الحبُّ يذهبُ

فهذه الوصيّة تشبه مثيلاتها في العصر الجاهلي من حيث طابعها الاجتماعي، ومضمونها المستمدّ من حياة العربي في الجاهليّة والإسلام، وأسلوبها الذي يظهر فيه قصر الجمل، مع ميلها إلى الموازنة، وإنْ تخلّصت من السّجع الذي لا تكاد تخلو منه نظيرتها في الجاهليّة، أمّا تحليّة الوصيّة بالشّعر، فلا تخلو منها الوصيّة أيضا في العصر الجاهليّ، إذْ كان الشّعر هو النّشاط الأدبي الشّائع على ألسنة عرب الجاهليّة)[30].

وصية اجتماعية جاهلية: ومن نماذج الوصيّة الاجتماعيّة للجاهليّة، وهي تفيد في الكشف عن التّشابه في الأسلوب بين هذا النّوع من الوصيّة في العصرين، وصيّة أكثم بن صيفي بنيه ورهطه، فقال: (يا بني تميم: الصّبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمر النّدامة، ومن جعل عرضه دون ماله استُهْدِف للذمّ، وكَلْمُ اللّسان أنكى من كلم السّنان، والكلمةُ مرهونةٌ ما لم تنجُم من الفم، فإذا نجمت فهي أَسَدٌ مُحَرَّبٌ، أو نارٌ تَلَهَّبٌ، ورأي الناصح اللّبيب دليل لا يجور، ونفاذُ الرّأي في الحرب أجدى من الطّعن والضّرب.

فهي مجموعة من الإرشادات الأخلاقيّة، والمعاني الحكيمة، المستمدّة من تجارب الحياة العربيّة البسيطة، صيغت في أسلوب يشبه من عدّة وجوه أسلوب الوصيّة السّابقة)[31].

العظات: (أمّا العظات فهي شكل أدبي نثري، يمكن أنْ يدخل في باب الخطب أيضا، "إلاّ أنّه لا يتعلّق بحال من أحوال الدّنيا، أو يتناول أمرا من أمورها، إلاّ بقدر ما يرغّب عنها، ويُزهّد فيها، وإنّما هي عظات دينيّة خالصة، قوامها التّوجيه إلى الله، والدّعوة إليه، والتّرغيب في الآخرة، والتّنفير من الدّنيا"[32].

---

[29] الأدب في عصر النبوة، ص: 202.

[30] الأدب في عصر النبوة، ص: 202، 203.

[31] الأدب في عصر النبوة، ص: 203، 420.

وإذا كان هذا هو الاتجاه الموضوعي للعظات، فهي إذن فنّ إسلاميّ خالص، نجم عن الإسلام، وتربّى بين أحضانه)[33].

العظات: (فالعظة كالوصيّة الدينية تماما ولولا أنّ الوصيّة خاصة بمواقف الإحساس بوفاة الموصي، أو رحيله أو نحو ذلك، وموجّهة إلى أهل الموصي أو ولده، لسمّيت العظات وصايا دينيّة أو سمّيت الوصايا الدّينيّة عظات)[34].

وعظ عمر بن الخطاب رجلا فقال: (لا يُلْهِيَنَّك النّاسُ عن نفسك، فإنّ الأميرَ يصل إليك دونهم، ولا تقطع النّهارَ سادرا[35]، فإنّه محظوظ عليك ما عملتَ، وإذا أسأتَ فأحسنْ، فإنّي لم أرَ شيئًا أشدّ طلبا، ولا أسرع دركا من حسنةٍ حديثةٍ لذنبٍ قديمٍ)[36].

ووعظ عليّ بن أبي طالب، فقال: (أوصيكم بخمسٍ لو ضُربت عليها آباطُ الإبل لكان قليلا، لا يَرْجُوَنَّ أحدُكم إلاّ ربَّه[37]، ولا يخافنَّ إلاّ ذنبَه[38]، ولا يستحي إذا سُئل عما لا يعلم أنْ يقول لا أعلم، وإذا لم يعلم الشّيء أنْ يتعلّمه، واعلموا أنّ الصّبرَ من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد، فإذا قُطع الرّأسُ ذهب الجسدُ)[39].

---

[32] عبد الحكيم بلبع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط 1، القاهرة، ص: 81.

[33] الأدب في عصر النبوة، ص: 204.

[34] الأدب في عصر النبوة، ص: 205.

[35] لاهيا.

[36] عبد الحكيم بلبع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط 1، القاهرة، ص: 81.

[37] المعنى مستمد من قوله ص: (... إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله).

[38] المعنى متأثر بقوله تعالى ﴿كل نفس بما كسبت رهين﴾.

[39] عبد الحكيم بلبع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ط 1، القاهرة، ص: 81.